

التحرير والتنوير

(والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئتهم من الجنة غرفا تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها نعم أجر العاملين [58] الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون [59]) عطف على جملة (والذين آمنوا بالباطل) .

وجيء بالموصول للإيماء إلى وجه بناء الخبر أي نبوئهم غرفا لأجل إيمانهم وعملهم الصالح . والتبوءة : الإنزال والإسكان وقد تقدم عند قوله تعالى (ولقد بوأنا بني إسرائيل مبوا صدق) في سورة يونس .

وقرأ الجمهور (لنبوئتهم) بموحدة بعد نون العظمة وهمزة بعد الواو . وقرأ حمزة والكسائي وخلف (لنبوينهم) بمثلثة بعد النون وتحتية بعد الواو من أثواه بهمزة التعديّة إذا جعله ثاويا أي مقيما في مكان .

والغرف : جمع غرفة وهو البيت المعتلى على غيره . وتقدم عند قوله تعالى (أولئك يجزون الغرفة) في آخر سورة الفرقان .

وجملة (نعم أجر العاملين) الخ إنشاء ثناء وتعجيب على الأجر الذي أعطوه فلذلك قطعت عن العطف .

وقوله (الذين صبروا) خبر مبتدأ محذوف اتباعا للاستعمال والتقدير : هم الذين صبروا . والمراد : صبرهم على إقامة الدين وتحمل أذى المشركين وقد علموا أنهم لاقوه فتوكلوا على ربهم ولم يعبأوا بقطيعة قومهم ولا بحرمانهم من أموالهم ثم فارقوا أوطانهم فرارا بدينهم من الفتن .

ومن اللطائف مقابلة غشيان العذاب الكفار من فوقهم ومن تحت أرجلهم بغشيان النعيم المؤمنين من فوقهم بالغرف ومن تحتهم بالأنهار .

وتقديم المجرور على متعلقه من قوله (وعلى ربهم يتوكلون) للاهتمام .

وتقدم معنى التوكل عند قوله تعالى (فإذا عزمنا فتوكل على الله) في سورة آل عمران .

(وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم [60]) عطف على

جملة (كل نفس ذائقة الموت) فإن الله لما هون بها أمر الموت في مرضاة الله وكانوا ممن لا

يعبأ بالموت علم أنهم يقولون في أنفسهم : إننا لا نخاف الموت ولكننا نخاف الفقر والضيعة .

واستخفاف العرب بالموت سجية كما أن خشية المعرفة من سجاياهم كما بيناه عند قوله تعالى (

ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق) فأعقب ذلك بأن ذكرهم بأن رزقهم على الله وأنه لا يضيعهم .

وضرب لهم المثل برزق الدواب وللمناسبة في قوله تعالى (إن أرضي واسعة) من توقع الذين

يهاجرون من مكة أن لا يجدوا رزقا في البلاد التي يهاجرون إليها وهو أيضا مناسب لوقوعه عقب ذكر التوكل في قوله (وعلى ربهم يتوكلون) وفي الحديث " لو توكلتم على الله حق توكله لرزقتم كما ترزق الطير تغدو خماسا وتروح بطانا " .

ولعل ما في هذه الآية وما في الحديث مقصود به المؤمنون الأولون ؛ ضمن الله لهم رزقهم لتوكلهم عليه في تركهم أموالهم بمكة للهجرة إلى الله ورسوله . وتوكلهم هو حق التوكل أي أكمله وأحزمه فلا يضع نفسه في هذه المرتبة من لم يعمل عملهم .
وتقدم الكلام على (كآين) عند قوله تعالى (وكآين من نبي قتل معه ربون كثير) في سورة آل عمران .

هو بل الحكم إفادة منه مقصود غير خبر (رزقها تحمل لا دابة من وكآين) وقوله A E مستعمل مجازا مركبا في لازم معناه وهو الاستدلال على ضمان رزق المتوكلين من المؤمنين . وتمثيله للتقريب بضمن رزق الدواب الكثيرة التي تسير في الأرض لا تحمل رزقها وهي السوائم الوحشية والقرينة على هذا الاستعمال هو قوله (الله يرزقها وإياكم) الذي هو استئناف بياني لبيان وجه سوق قوله (وكآين من دابة لا تحمل رزقها) ولذلك عطف (وإياكم) على ضمير (دابة) . والمقصود : التمثيل في التيسير والإلهام للأسباب الموصلة وإن كانت وسائل الرزق مختلفة .

والحمل في قوله (لا تحمل رزقها) يجوز أن يكون مستعملا في حقيقته أي تسير غير حاملة رزقها لا كما تسير دواب القوافل حاملة رزقها وهو علفها فوق ظهورها بل تسير تأكل من نبات الأرض : ويجوز أن يستعمل مجازا في التكلف له مثل قول جرير :
" حملت أمرا عظيما فاصطبرت له أي لا تتكلف لرزقها . وهذا حال معظم الدواب عدا النملة والفارة قيل وبعض الطير كالعقعق